من أعماق النفوس

اعترافات فتى العصر

للفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

تمهيد

فى مثل هذه السنة منذ قرن كامل كتب الفرد دى موسيه الأديب الخالد كتابه (اعتراف فتى العصر) ليصف الأدواء التى استحكمت بأبناء جيله بعد أن اجتاحت أوروبا بأسرها أعاصير الحروب ، ووقفت على أطلال عالم مندثر شبيبة تعثرت آمالها وتزعزع إيمانها

ولقد رغب الى الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات صاحب الرسالة التى تنير آفق الشرق العربى بالحكمة ، وصاحب الرواية التى تختار لها من الأدب العالمى أصفاه مورداً لتثقيف العواطف الحائرة فى النشء الجديد ، أن أترجم هذه التحفة الأدبية الخالدة ؛ فنزلت عند رأيه لأنه صادف هوى فى نفسى ، إذ أننى أرى مايراه الأستاذ الكبير من أن اعتراف فتى العصر هو خير ما يهدى للشبيبة العربية الواقفة على أطلال حضارتها القديمة متطلعة الى مستقبل مجهول ، حائرة بين تذكاراتها وآمالها .

عن الاسكندرية — فليكس فارس

الجزء الأول

الفصل الأول

لا يدون تاريخ حياته من لم يبتل الحياة ، فما أكتبه ليس تاريخاً لحياتى

* * *

منيت فى شرخ الصبا بعلة نفسية تروعت لها ثلاثة أعوام ، وهأنذا أسرد ما تحملته منها

ولو أننى كنت المصاب وحدى بهذه العلة لاخترت كتمانها ، ولكن الكثيرين يشكون الداء الذى أشكو . فالى هؤلاء أوجه رسالتى ؛ وسواء استوقفهم بيانى أو مروا به غافلين ، فان هذا البيان سينهش ما أطبقت الذوائب عليه منى كما ينهش الثعلب رجله ليتركها للفخ وينجو بنفسه

الفصل الثانى

فى إبان الحروب الامبراطورية ، بينما كان الآباء والاخوة فى بلاد الألمان ، قذفت الأمهات المضطربات هذا الوجود بسلالة شاحبة عنيفة مستعرة الأحشاء ، تلك سلالة تمخضت الحياة بها بين معركتين ، وربيت فى المدارس على دوى الطبول ، فكان إذ ذاك ألوف من الأولاد يحدج بعضهم البعض الآخر

شرراً وهم يمرّنون على القوة عضلاتهم الضعيفة . وكان الآباء الملطخون بالدماء يلوحون للأبناء من حين الى حين فيرفعونهم لحظة الى صدورهم المحلاة بالذهب ثم يتركونهم الى الأرض ، ويعودون الى صهوات الجياد

ولم يكن فى فرنسا غير رجل واحد يتمتع بالحياة ، أما الباقون فكانوا يجتهدون أن يملأوا صدورهم من الهواء الذى كان ينشقه ذلك الرجل ثم يزفر به إلى الناس ؛ وكانت البلاد تقدم له كل سنة ثلثمائة ألف من شبانها جزيةً فرضت للقيصر ليتمكن وهو يجرها كالسائمة وراءه من بلوغ الأمجاد التى يطمح إليها ، بل ذلك هو الركب الذى كان يحتاج إليه ليجتاز الدنيا متجهاً إلى الوادى الحقير حيث ترامى على جزيرة قفراء تحت أغصان الصفصاف الباكى

وما مرت فى التاريخ ليالٍ ساهدة كالليالى التى مرت فى عهد هذا الرجل ، وما شوهد فى أى زمنٍ من الأزمان مثل هذا العدد الغفير من الأمهات ينتحبن متفجعات باكيات على الأسوار والحصون ؛ وما أصغى الناس برهبةٍ إلى من يتحدثون عن الموت إصغاءهم فى تلك الأزمان ، ومع ذلك لم يشهد التاريخ مثل ما تجلى فى ذلك العهد من سرور ومن قوة حياة ، وما أوقدت موسيقى الحروب من حماس فى كل القلوب ؛ وما لمعت فى فرنسا شموسٌ كتلك الشموس التى جففت على الأرض أنهاراً من الدماء ؛ وكان الناس يصفونها بشموس اوسترلتز ويعتقدون أن الله انما يشرقها لخدمة ذلك الرجل ؛ غير أنه هو كان يطلقها من أفواه مدافعه المرعدة فلا تنعقد من نيرانها الغيوم إلا فى اليوم التالى لمعاركه .

وكان أبناء ذلك العصر ينشقون الحياة تحت تلك السماء الصافية الأديم حيث لمعت الأمجاد وتموجت الأنوار منعكسة على الفولاذ ، وماجهات تلك الشبيبة أنها معدة للمجازر ، ولكنها كانت تعتقد أن (مورات) أرفع من أن يناله الموت ، وكانت رأت أن الامبراطور يمر بين كرّات المدافع ويقطع أحد المعابر هازئاً بنفثات البنادق فداخلها الشك فى انسانيته وحسبته من أبناء الخلود

وما كان ملك الموت ليلقى الذعر فى روع هذه الشبيبة وهو متشح برداء البهاء والجلال تتصاعد منه أبخرة النجيع كأنه بشير الأمل لا نذير الفناء وكأنه ، وقد حصد بمنجله حقولاً من السنابل الخضراء ، استمد منها الفتوة فلاح غضُّ الاهاب ناضر الشباب

لقد أصبحت الشيخوخة وهما من الأوهام ، واستحالت المعهود كما استحالت النعوش أيضاً دروعا فخلت فرنسا ممن يدب على أرضها من العاجزين فلم يبق على تلك الأرض إلا إنصاف آلهة أو أشلاء أموات

وقف يوما هذا الامبراطور الذى حسبه الناس خالداً على أكمةٍ أشرف منها على سبعة شعوب تتناحر ، وما كان يدرى أيمتد حكمه إلى آخر العالم أم يقف عند نصف العالم ، فمرّ به عزرائيل وبلمسةٍ من طرف جناحه دفع به إلى عباب الأوقيانوس الفسيح

وبلغ دويّ سقوطه آذان الدول المنطرحة على أسرّة الاحتضار فجاست تقاوم أوجاعها ومدّ الملوك راحاتهم المتقلصة فاقتسموا أوروبا ، واتخذوا من وشاح القيصر مرقعات يسترون بها

يواصل المسافر السيرَ بالسُرى ويقتحم الحرّ والقرّ ووجهته مقرّ عياله دون أن يشعر بثقل السهد أو يبالى بما يحدق به من أخطار إلى أن يستقرّ بين أهله ويجلس أمام الموقد ؛ حينئذ يحلّ عليه التعب فلا يجد فى عضلاته من القوة ما يستعين به على الزحف إلى مرقده ؛ وما كانت فرنسا حينذاك إلا مثل هذا المسافر حين مات قيصرها فترملت ، شمرت لجأة عما اتخنها من جراح ، فسقطت لا تعى واستغرقت فى نومها حتى حسبها ملوكها الشيوخ ميتة فطرحوا عليها الأكفان البيضاء

ورجع الجيش القديم فلولاً أرهقها العياء وعلا المشيب مفارقها ، فعادت الأنوار تشع حزينة فى باحات القصور المقفرة

حينئذ أقبل رجال الامبراطورية الذين جابوا الأقطار وملأوها دماً على نسائهم الشاحبات ، وقبلوهن متحدثين عن الغرام القديم ، وتحولوا إلى مياه الغدران ينظرون فيها الى وجوههم وقد خدّدها الهرم فتذكروا أبناءهم وهم يقتربون الى الحين الذى يذكر الانسان فيه من يغمض له أجفانه

وخرج الأبناء من المدارس ، وإذ لم يجدوا لا سيوفا ولا دروعا ولا فرسانا ، أجالوا الطرف مفتشين عن آبائهم ، فقيل لهم إنّ الحرب قد انقضى عهدها ، لأن القيصر قد مات ، وأن صورتى ولنكتن وبلوخر معلقتان على جدران السفارات ، وقد كُتب تحت كلٍّ منهما : (مُخَلِّص العَالَم)

فى ذلك الحين ربضت على أطلال العالم القديم شبيبة تتنازعها الهموم

وكان كل هؤلاء الشبان نقطا من الدماء المحرقة التى غمرت وجه الأرض . ولدوا فى أحضان الحروب للحروب ، وراودت أحلامهم طوال خمس عشرة سنة ثلوج موسكو وشمس الأهرام . وما كانوا خرجوا من مدائنهم ، ولكن قيل لهم إن أبواب كل من هذه المدائن تقود الى عاصمة من عواصم أوربا . لقد كان العالم بأسره ماثلاً فى خيال تلك الشبيبة ، ولكنها كانت تجيل أبصارها على الأرض والسماء والطرق فتراها كلها مقفرة خالية ، ولا تسمع إلا رنين أجراس الكنائس تقرع الهواء من بعيد

واجتازت الحقول أشباحٌ ناحلة تتخطر على مهل ساحبة أردانها السود

وطرقت الأشباح أبوابا أخرى لتبرز للسكان أوراقاً أخلقها الزمان ، وتأمرهم باخلاء منازلهم . وانفرجت الحدود المقفلة عن رهط المهاجرين الذين هرعوا الى فرنسا ولم تزل على وجوههم آثار ما نزل بهم من الخوف منذ عشرين سنة . وساد الصخب وعلا الضجيج ، فدهش العالم لميتة واحدة تستجلب مثل هذا العدد الغفير من الغربان

وجلس ملك فرنسا على عرشه وهو يقلّب نظره فى رياش قصره خشية أن يكون قد تبقى عليها أثر من شارات الأمجاد البائدة ، فتألب حوله رهط المالئين يعدّ بعضهم يد الاستجداء فينفحهم بالمال ويقدّم البعض الآخر له صليبا فينحنى مقبلا هذا الصليب

وناجاه البعض بالمديح والاطراء فأشار الى مثل هؤلاء بالذهاب الى القاعة الكبرى حيث تتكفل الأصداء بإذاعة مجد الملك المظيم ... وزحف آخرون عند أقدام العرش عارضين ما أخلق الزمان من أرديتهم وقد نزعوا عنها شارات العهد البائد ،

فكان الملك يأمر لهؤلاء الخونة بالخلع السنية ...

وكانت الشبيبة تشهد هذه المهازل متوقعة ظهور خيال القيصر على شواطىء (كان) ليرسل عاصفته الكاسحة على هذه الحشرات

تعثرت الآمال وطال السكون ، فلم تلمح في الآفاق غير المزانيق الصفراء شارة الملكية المتحكمة

وسأل الفتيان عن الأمجاد فقيل لهم : اعتنقوا الكهنوت

وسألوا عن الأماني فقيل لهم : اعتنقوا الكهنوت

وسألوا عن الحب والقوة والحياة فقيل لهم : صيروا كهنة

واعتلى المنبر في ذلك الزمن رجل يحمل عقد اتفاق بين الملك والشعب ، فقال : جميلة هي المغانم والمطامع والحروب : ولكن هنالك ما هو أجمل منها جميعاً : هنالك الحرية

فرفع الفتيان رؤوسهم وتذكروا أجدادهم الذين تكلموا هم أيضاً عن الحرية ، وعادت إلى مخيلتهم تلك الذكرى الرخامية التي كانوا يرونها في زوايا بيوت آبائهم ، وقد تدثت شعورها ونقشت على قواعدها تواريخ رومانية

وتذكروا أيضاً أنهم شاهدوا أجدادهم في ليلة سمر يهزون رؤوسهم ويذكرون معارك تفجرت فيها الدماء عما يفيض عن النهر الذي أساله الامبراطور . لذلك دوت كلمة الحرية في آذان هؤلاء الفتيان بصوت نبضت له قلوبهم كأنهم يصغون في آن واحد إلى صوتين : أحدهما صوت الذكرى البعيدة المروعة ، وثانيهما صوت الأمل المنشود يتراجع من مستقبل أبعد من الماضي

هزت كلمة الحرية هؤلاء الفتيان بنشوتها السحرية ، ولكنهم شاهدوا وهم عائدون إلى مساكنهم ثلاث جثث لثلاثة شبان تجرأوا على التلفظ بكلمة الحرية ؛ فرت على الشفاه ابتسامة ملؤها الأسى

وارتقى المنابر بعد ذلك خطباء آخرون فتكلموا عن مساوىء الحروب وأخطار الانتقاض ، وأفاضوا بذكر المطامع وتكاليفها قائلين إن الحروب مذابح والمعارك مجازر . وتكلموا تكراراً وتكلموا طويلاً حتى تعرت النفوس من أمانيها كما تتعرى أشجار الخريف من أوراقها ، فكان السامعون يمدون أيديهم إلى جباههم يتلمسونها كما يتلمس المحموم موضع شعوره وهو يفيق من غيبوبته

وقال البعض لقد سقط الامبراطور لأنه أرهق الشعب ، وقال آخرون — إن الشعب أراد الملكية بل الحرية ، بل سيادة العقل ، بل سيادة الدين ، بل الدستور الانكليزي ، بل الحكم المطلق . فارتفع بين هؤلاء المفترضين صوت قائلاً — لا ، لم يرد الشعب شيئا ، إنّ ما أراده الشعب هو أن يرتاح

(يتبع) فيليكس فارس

قصص اجتماعية

مترجمة بقلم الأستاذ محمد عبد الله عنان

مجموعة من القصص الرفيع الشائق لثمانية من أعلام الأدب الفرنسي هم : بورجيه . كوبيه . أناتول فرانس . موباسان . تيريه . مارسل بريفو . دي بانفيل . جان لوران . مع تراجمهم النقدية . ومترجمة بأسلوب فائق . في ثلاثمائة صفحة طبع دار الكتب

ثمنه ١٠ قروش ويباع مؤقتاً بـ ٦ قروش بخصم ٤٠ ٪

عدا البريد وهو قرشان لداخل القطر وأربعة خارجه ويطلب من إدارة الرسالة ، ولجنة التأليف والترجمة وجميع المكاتب